قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ رواه مسلم

البناء العلمي

البناء العلمي

المرحلة الثانية

الفصل الدراسى الأول

تفسير جزء تبارك

د. عبدالعزيز السدحان

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

سورة "القلم".

- أسماؤها:
  - تُسمَّى بسورة "القلم".
  - وتُسمَّى سورة "نون".
  - وتُسمَّى سورة "نون والقلم".

هذه السُّورة الكريمة آياتها: اثنتان وخمسون آية.

- نوع نزولها:
  - قيل إنَّها مكيَّة.
  - وقال بعضهم: إنَّها مكيَّة إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.
  - وقال آخرون: إنَّها مدنيَّة.

ولعلَّ الصَّحيح أنَّها مكيَّة، وقد نزل كثيرٌ مِن آياتها في الوليد بن المغيرة.

- فضائل السُّورة:

سورةُ القلم ورد فيها حديثان مكذوبان، وطالبُ العلم يعرفُ الحديثَ الصَّحيحَ ليعمل به ويُعلِّمه للآخرين، ويعرفُ الحديثَ الباطل المكذوب ليَحذرَه ويُحذِّرَ منه.

- الأول: "مَن قرأ سورةَ القلمِ أُعطِيَ أجرَ الذين حسُنَت أخلاقُهم" .
- الثَّاني: "مَن قرأ سورةَ القلمِ نوَّر اللهُ قلبَه وقبرَه وبيَّضَ وجهه وأعطاهُ كتابَه بيمينِه، وأجرى عليه بكلِّ آيةٍ يقرأها أجرَ مَن مات مبطونًا". والحديثان مكذوبان لا يصحَّان.

- هذه السُّورة بدأها الله تعالى بقوله: ﴿ن﴾ قال بعضهم: المراد بالنون الحوت،والصواب: أن ﴿ن﴾ من الحروفِ المقطَّعةِ كما في قوله تعالى: ﴿ص﴾[ص: 1]، ﴿ق﴾ [ق: 1]، ﴿طس﴾ [النمل: 1]، ﴿الم﴾ [البقرة: 1] وهكذا.

- ﴿وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: 1]، القلم: هو ما يُكتب به. وقال بعضهم: المرادُ هو القلمُ الذي كُتِبَ به القضاء عند الله تعالى، أي الذي تَكتب به الملائكة، والصواب: أنَّه يحتمل الأمرين.

والقلم الذي يُكتب به له شأن عظيم الآن؛ لأن بالقلم تُوَثَّقُ الشَّهادات، ويُقَيَّد العلمُ، وتُضبَطُ الوَصَايا، ويُدَوَّن التَّاريخُ.

هنا مسألةٌ عَقديَّة ذكرها بعضُ أهل التَّفسير عند هذه الآية، وهي حديث «إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القلَمَ، فقال لهُ: اكتُبْ، قال: يا ربِّ وما أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتى تقومَ الساعةُ» [1]، هل هذا القلم هو أول المخلوقات التي خلقها الله أم هناك ما خُلق قبله؟

كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماء، وحديث «أول ما خلق الله القلم»، يعني عندما خلق الله القلم، كان أوّل ما قال له: "اكتب"، ولا يُفهم من الحديث أنَّها الأوليَّة قبل كلِّ المخلوقات، فالعرش قبله، وعندما خلق الله القلم كان أول ما أُمر به أن يكتب.

- قال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: 1]. أقسم الله بالقلمِ لعظيمِ شأنِ القلمِ، والأقلامُ التي نكتب بها الآن سواء كتابة مباشرة أو بأجهزة التِّقنيَّة تقوم مقام القلم، وشأنها عظيمٌ، وهي بابٌ عظيمٌ إلى الخيراتِ والحسنات، أو بابٌ عظيمٌ وخطيرٌ إلى السَّيئات والموبقات، فالأقلام إمَّا مسمومة أو مشكورة.
- قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ لأن الغالب في الكتابة تكون في أسطر.
- ما أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ لأنهم قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: 6]. فما أنت بنعمة ربك بمجنون بل هو -عليه الصَّلاة والسَّلام- في أشرف المنازل.

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بالرسالة والهداية وأنك أفضل الأنبياء، وأن دعوتك أفضل الدعوات، فأنت في منزلةٍ رفيعةٍ وعاليةٍ، والمجنونُ مَن انتقصكَ، والمجنونُ مَن حاربكَ، والمجنونُ مَن اتَّهمكَ. وسيأتي ضمنَ الآيات ما يُؤكِّد أنَّ القوم يتَّهمونه وهم أولى بالاتِّهام.

- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، أي: كثير غير مقطوعٍ.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، هنا مَن الذي مَدَحَ النَّبيَّ؟ الذي عظَّم ومدح خُلُق النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- هو الله -عزَّ وجلّ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهو -عليه السَّلام- حقيقٌ بهذا الوصف ويكفي أنَّ الله تعالى مدحه، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28]، ولهذا أمُّنا عائشة -رضي الله تعالى عنها- لما سُئِلت عَن خُلق النَّبيّ صلى الله عليه وسلم أجابت بجملة تدل على ذكائها وعلى فقهها وفطنتها، قالت: «كان خلقه القرآن» [2]، كلمة موجزة تحمل في طيَّاتها معانٍ كثيرةٍ. يَأتمرُ بأمرِهِ، ويَنتهي عند نهيه، ويَتأدَّبُ بأدبِهِ، إلى غير ذلك.

ونستفيد هنا: أنَّ مَن يَدعُ النَّاسَ إلى الخيرِ لا ينبغي أن يبالي بما يُتَّهَمُ به من الصِّفات، أنت سفيه، وأنت كذا وكذا، فقد قيل للرسول صلى الله عليه وسلم شاعرٌ، وقالوا كاهنٌ، قالوا مجنونٌ.

---

[1] صحيح الجامع للألباني (2018).

[2] صحيح الجامع للألباني (4811).

وأيضًا على صاحبِ دعوةِ النَّاس ومَن يُنصِّبَه النَّاس مُعلمًا لهم أن يتخلَّقَ بالأخلاق الفاضلة، ودرجة الأخلاق عظيمة، قال -عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِهِ درجةَ قائمِ الليلِ، وصائمِ النهارِ» [٣]، وقال -عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّما الأَعمالُ كالوِعاءِ، إذا طابَ أسفَلُهُ، طابَ أعلاهُ، وإذا فَسدَ أسفلُهُ، فَسدَ أعلاهُ» [٤]، وقال: «وإنَّ الخُلُقَ السَّيِّءَ يُفسِدَ العَمَلَ كَما يُفسِدُ الخَلُّ العَسَلَ» [٥].

إذن الأخلاقُ دعوةٌ صامتةٌ تؤثِّرُ في النَّاسِ أحياناً أكثرَ مِن الدَّعوة النَّاطقة، فالأخلاق تأسرُ من يجالس صاحبها، والأخلاق الفاضلة الطيِّبة عبادة يُتقرب بها إلى الله تعالى.

- قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ستعلم يا محمد صلى الله عليه وسلم وسيعلم الذين اتَّهموك بالجنون وانتقصوك، وستكون النَّتيجة يراها الطرفان -أنت وهم.
- قال تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ هل أنت مفتونٌ بما تقول ومجنون؟ أو هم باعتراضهم عليك مجانين ومُحارِبين ومعاندِين للحق؟
- قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الله تعالى يعلم حال النَّاس جميعًا، ويُعطي مَن يشاء بفضله ويمنع مَن يشاء بعدله، وأقام الحجة وبيَّن المحجَّة.
- قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ، المُكَذِّب لا خير فيه ولن يأتيك بخير، والآية دليلٌ على قُبحِ خصلةِ الكذب. وأولى النَّاس بالبعد عن خصلة الكذب لفظًا أو سماعًا هو طالب العلم الذي يدعو النَّاس إلى الخير، لا تسمع المكذبين إلا لِتنصحهم عن كذبهم، فلا تأخذ آرائهم، فالكاذب لن ينفعك؛ بل سيضرك، سيقول لك خلاف ما في نفسه، وسيكذب في مقولته لك، ولهذا فلا تطع المكذبين.
- وإذا كان هذا الخطاب مِن الله تعالى إلى الرسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- فطالبُ العلم عليه أن يحذر وأن لا يُصغي بسمعه إلى المكذِّبين، فكلامهم لغوٌ وباطلٌ، وأنت مأمور عند اللغو أن تُعرض.
- قال تعالى: ﴿وَدُّوا﴾ يتمنون ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ المداهنة: اللين.

قال تعالى: ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾. قيل في معناها:

- ✓ لو تلين عن دينك فيلينون عن عداءهم له.
- ✓ وقيل: لو تعرض عن دينك فيعرضون عن إيذاءهم لك.
- ✓ وقال بعضهم: تعبدُ آلهتهم ويعبدون آلهتك.

- قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ ، أيضًا هذا أولى النَّاس به مَن يدعو النَّاس للخير، ولاحظ صيغة المبالغة "حلَّاف"، أي كثير الحلف.

قال تعالى: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ لأن احتقار النَّاس له لمهانته، يحاول يُرقِّع نقصه وفقره العلمي والعَقَدي بالحلف.

---

[٣] صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (5011).

[٤] سنن ابن ماجه (3404) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

[٥] شعب الإيمان للبيهقي (2736/6)، وضعفه الألباني.

وغالبًا يحلف باستمرار، ومن كثرة الحلف بالله وقد يضطر للكذب أحيانًا، وقد يتعود الحلف حتى في أمور الكذب، فيكون طبعه الحلفُ الكاذب، وهذا مُحذَّر منه شرعًا.

- قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، كلها صفاتُ قُبحٍ وذمٍّ، وصفات مبالغة. ﴿هَمَّازٍ﴾، أي: كثير الهمز.
- جاء في سورة الهمزة: ﴿وَيلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1]، ما الفرق بين الهمز واللمز؟
  - ✓ قال بعضهم: الهمزُ واللمزُ بمعنًى واحدٍ.
  - ✓ وقيل: الهمزُ ذكر الشخص في حضوره، واللمز ذكره في غيابه.
  - ✓ وقال آخرون: الهمز بالقول، واللمز بالفعل.
- وبكل حالٍ كلاهما مذمومان، وهنا نستفيدُ أنَّ الغِيبة قد تكون فعليَّة، فبعضهم يقصد أن الغيبة قولية، بل قد تكون الغيبة فعلية، فالغيبة الفعليَّة من الخطورة بمكان وتخفى على كثير من النَّاس، والدعاء قد يكون غيبة، أي أن الدعاء للشخص قد يتضمن في ثناياه غيبة. كيف ذلك؟

  مثلًا: إذا ذُكر شخصٌ من النَّاس، فقال أحد الحاضرين: دعوه، عفا الله عنا وعنه، دعوه الله يستر علينا وعليه. فهذه الكلمة تُشعر الحاضرين، بل يجزم الحاضرون بأنها قدح، وأن في ذلك الشخص خللًا وعيبًا وقدحًا.الهمزُ واللمزُ يكون بالقول والفعل في حضورٍ أو غيابٍ، وكلها مُحرَّمة ولا تجوز.
- قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ فوصف حاله بأنه يمشي بالنميمة، من باب أولى في قعوده وجلوسه وإضجاعه، يعني كثير النميمة، فيمشي بها بين النَّاس، يحدث هذا وهذا، فكلما حدَّثَ أحدًا تتَّسع دائرة النيمية، فيعظُمُ إثم صاحبُها الأولِ.

  والنميمة -كما نعلم- من كبائر الذنوب، وجاءت أحاديثٌ في تحريمها وذمها، وفي قبح صاحبها، ومن ذلك حديث: «لا يَدخلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ»[٦]، قيل: المراد به: النمام.
- قال تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ يمنع خيره القولي، وخيره الفعلي، وخيره المادي، لا ينفع بلسانه، ولا ينفع بجوارحه، ولا ينفع بماله، وهذا شر كله.

  قال تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ ظالم يتعدى على غيره.
- قال تعالى: ﴿أَثِيمٍ﴾ يفعل الآثام من الأقوال والأفعال، كلها صفات قُبح، فلاحظ قوله: ﴿حَلَّافٍ﴾ ﴿مَّهِينٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾ ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ، ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ ، ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ، وأولها: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ، كلها صفاتُ ذمٍّ وقبحٍ، وينبغي لطالب العلم أن يكون أولى النَّاس بالبعد عنها، وبتعليم النَّاس لها.
- قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ ، العتل: المتكبر الجوَّاظ المستكبر، وقد جاء في الحديث عند البيهقي وغيره: «إنَّ اللهَ يُبغِضُ كلَّ جَعظَرِيٍّ جوَّاظٍ سخَّابٍ بالأسواقِ جِيفةٍ باللَّيلِ حِمارٍ بالنَّهارِ عالِمٍ بأمرِ الدُّنيا جاهلٍ بأمرِ الآخِرةِ»[٧].

---

[٦] صحيح البخاري (6056).

[٧] صحيح ابن حبان (72)، وذكره الألباني في صحيح الجامع (1878).

العتل هو المتكبر الذي ينظر إلى النَّاس بالدونية، فيرى أنه أحسن منهم، وأرفع منهم، وهذا من أعظم أسباب الصدود عن سبيل الخير.

- قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ ، الزنيم: يعني أن فيه علامة، فما يُعلَّق في عنق الشاة أو في أذنها، ما يُعلَّق في العنق يسمى "زَلَمَة"، وما يُعلَّق في الأذن يسمى "زَنَمَة".

وقيل أن هذا الرجل كان فيه علامة على أنفه كما سيأتي في قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

- قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ هذا المعاند للخير، من أسباب عناده أنه صاحب أموال، وصاحب أولاد. ودائمًا هذه الأمور تكون استدراجًا من الله لهؤلاء، فيغترون بأموالهم وأولادهم، ويزدادون عداءً للخير، ولهذا قال: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: 13، 14]، أي أعطاه الله البنين، ومهد له سبل الرزق، فاستقوى بهذا على الخير، وما علم أن هذا استدراج.

- قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ، بعض النَّاس إذا يسمع الآيات لا يؤمن بها، فيسكت ولا يردها، ولا يسخر منها، ولا يعارضها، قد يتأمل فيها في نفسه، أو لاحقًا، لكن هذا المعارض بلغ من الشِّر مبلغًا، فقال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ، أي: أخبار الأولين، وما يقصُّون من أخبار الأوائل، فهو عناد وكبر بكل ما تعنيه كلمة عناد وكبر، وهو يعلم أن هذا حق، ويعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق، وكما قال الله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 146].

- قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ ، سَنَسِمُهُ : نجعل له علامة، يقال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، أي: علامتهم. وفي سورة الرحمن: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: 41]، أي: بعلاماتهم. وفي سورة آل عمران: ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]، أي: مُعَلَّمين. سَنَسِمُهُ: يعني نجعل له علامة. على أي شيء؟ ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ ما المراد بالخرطوم؟ المراد به الأنف، وهو أبرز علامة في الوجه، فإذا خُتِمَ الوجه أو جاءت علامة فيه تكون أبرز من غيرها.

- قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ هؤلاء الكفار الذين عاندوك قد أعطيناهم من نعيم الدنيا الشيء الكثير. وشبَّهَهُم في الآية بأصحاب الجنَّة –البستان- الذين آتاهم الله بستانًا فيه من النَّعيم والخضرة، وفيه من الثِّمار الشيء الوفير، فهؤلاء يا محمد الذين عاندوك اغتروا بدنياهم، كما اغتر أصحاب الجنَّة بجنتهم. والمراد بالجنَّة هنا: البستان.

- قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، أقسموا أي: حلفوا.

- هؤلاء أناس عندهم بستان، لا يريدون للفقراء حظًّا من هذا البستان، فأقسموا أن يخرجوا مصبحين -لاحظ سوء العمل وسوء القول- فأقسموا على عملٍ ونيةٍ فاسدة وسيئةٍ، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أي: يقطعون ثمارها ويُجِذُّونها. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: في الصباح مبكرين؛ حتى لا يراهم الفقراء، فهم لا يأتون إلا وسط النهار.

- قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، يعني ما قالوا: إن شاء الله.

وقيل: ما استثنوا إلا الفقراء، بل أرادوا حرمان جميع الفقراء من هذه الثمرة. انظر كيف بيَّتوا النيَّة وكيف كانت العاقبة!

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني لم يقولوا: إن شاء الله، ولم يستعينوا بالله، وأقسموا على الذِّهاب جماعة لقطع الثِّمار في الصباحِ الباكرِ، وقد يكون هذا بعد الفجر، لأن بعد طلوع الشَّمس مظنَّة مجيئ الفقرآء.

وهؤلاء يا محمد الذين عادوك عندهم خيرات وأموال وأولاد، لكن هذه الخيرات والأموال والأولاد، لن تغنِ عنهم شيئًا، كما لم تغنِ الجنَّة وما فيها من الثِّمار عن أصحابها شيئًا.

- قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، الطائف قيل: ريح، وقيل غير ذلك.
- قال تعالى: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ قد بيَّتوا النية على الذهاب جماعة للتَّلذُّذ وأخذ ما زرعوا.
- قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ لا شيء فيها، إذا صُرم النخل انتهى ثمره، فلم يروا فيها أثرًا.
- قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا﴾ فتنادوا للذهاب لها.
- قال تعالى: ﴿مصبحين﴾، أي في الصباح الباكر.
- قال تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ لا يعلموا الذي حصل لها بالليل.
- ﴿أَنِ اغْدُوا﴾، أي اذهبوا، الغُدُوُّ: هو الذهاب أولَّ النهار.
- قال تعالى: ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾، أي: إن كنتم تريدون جُذاذ الثَّمرة.
- قال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا﴾ التعبير بالانطلاق من الإسراع والعجلة، وهذا الإسراع تشوقًّا لأخذ الثمرة، وفي المقابل من باب إخفائها عن الفقراء.
- قال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ انظر إلى الخُبث! يتخافتون حتى لا يسمعهم أحد، فكل هذه الأمور - القسم، والذهاب، وعدم الاستثناء، والتخافت في الكلام- من باب إغلاق الطرق على مجيء الفقراء.
- قال تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ لا يشارككم أحدٌ من المساكين هؤلاء، والمسكين: مَن لا يجد قوت يومه.
- قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ ، قيل: إن كلمة "حرد" هي اسم البستان، واستبعد هذا بعض المفسرين.
- وقال بعض المفسرين: إن المراد بالحرد هنا: أنَّهم غدوا على أرض لا خيرَ فيها بعدما طاف عليها الطائف.
- قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ ، أنهم هيئوا القوة الحسِّية والمعنويَّة للجُذاذ، لكن ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ رأوا جنَّتهم وبستانهم الذي كانوا يُؤمِّلون بقطفه، ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ قيل المراد: أنهم قالوا أخطأنا مكانها، أيُعقل بعد أن كانت فارهة بالثمار، والآن هي هذه! إذن نحن أضللنا مكانها. لكن هذه الدَّهشة اليسيرة زالت بعدما وعوا أن هذا هو البستان الذي زرعوه، وما بينهم وبين موعد الثمار إلا ساعات، فأذهبها الله تعالى.
- قال تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أقروا وعلموا واستيقنوا أن هذه عقوبة حلَّت بهم، وحرمتهم من ثمارهم. ونستفيد من مجموع ما ذُكر: أن حرمان الفقراء من حقِّهم، تنزل به العقوبة عامة على المال كله.
- قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ وهنا المراد بالأوسط: أعدلهم، وأعقلهم، وأفضلهم ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] أي: عدلًا، قال البخاري في الصَّحيح: "الوسط: العدل".

- قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، يعني وعظهم، ونصحهم، وذكَّرهم بأن يكفوا عن ما همُّوا به، وأن يسألوا الله تعالى من فضله، ويسبحون الله تعالى ويعظمونه، فتذكروا وصيَّة صاحبهم، ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

نستفيد: أن تلزم من أصحابك من كان يُذكِّرُكَ إذا نسيت، ويُعينكَ إذا ذكرت، ويُصوِّبكَ إذا أخطأت، فمثل هذا الزمه، أما إذا رأيت الصَّاحب لا يهتم بخطئك، ولا يقيم عِوَجِك إذا أخطأت ولا يبالي، بل يُقرُّك على خطئك، فمثل هذا لا يُحرص عليه، وكما قيل: الصاحب ساحب.

- قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، قال بعض المفسرين: إنهم رجعوا إلى ربهم، واعترفوا لمَّا علموا خطيئتهم، ورأوا عقوبة الله تعالى في بستانهم، ومع أن الله عاقبهم، لكن من رحمته -عزَّ وجلَّ- أن رحمهم بأن العقوبة أصابت البستان والثمر، ومن رحمته أنه أمهلهم فتذكروا خطأهم.
- قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، ظلمنا أنفسنا، وظلمنا الفقراء.
- قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ هذا من التوبة النصوح، أن الإنسان إذا عرف خطأه رجع، سواءٌ كان واحدًا أو كانوا جماعة، فإذا أخطئوا ذكَّر بعضهم بعضًا بخطئهم، وذكَّر بعضهم بعضًا بالتوبة من خطئهم.
- قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يلوم كل واحد صاحبه، هذا يقول: أنت أقررتني، وأنت لم تنكر علي، وأنا قلت وأنت أيدتني، وهلم جرا.
- قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ هذا أيضًا من الاعتراف بالذنب ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ الطغيان: هو تجاوز الحد. يعني أننا جاوزنا حدَّنا ولم نشكر نعمة الله تعالى، ولم نعطِ الفقراء حقهم، ولم نرعَ هذه النعمة حق رعايتها.
- ثم دعوا ربهم: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

أصحاب الجنَّة لما أرادوا معصية الله، وحرمان الفقراء، انقلبت الآية عليهم، لكنهم هنا تابوا، فالكفار لو تابوا ورجعوا وأنابوا لأَمرِ الرسول صلى الله عليه وسلم لكان خيرًا لهم، لكنهم ركبوا أهواءهم، ومن تاب تاب الله عليه، لأن كفار قريش منهم من أسلم وحسن إسلامه، ومنهم من عاند وأصر وكابر.

- قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ هذا في الدنيا، فأصابهم غمٌّ وهمٌّ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، يعني إذا رأيت نعيم الدنيا وأعظمته، فاعلم أن نعيم الآخرة أعظم، وإذا حلَّت مصيبةٌ في الدنيا أو عذابٌ بأحد، فاعلم أن مصاب الآخرة وأن عذاب الآخرة أعظم. ولهذا دائمًا الربطُ بين حوادثِ الدنيا والآخرة يَزيدُ المؤمن إيمانًا.
- بعدما ذكر الله حال هؤلاء المعاندين والمكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ هذا جزاءً وفاقًا من الله -عزَّ وجلَّ- فالعاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، والتقوى تعريفها: أن تعبد الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معاصي الله، على نور الله، تخشى عقاب الله.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

